﴿ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنًا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم﴾ النور ٣٣

تفصيل المعانـــي :

(ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء) : الفتيات جمع فتاة ، وكل من الفتى والفتاة كناية مشهورة عن العبد والامة ، والبغاء زنى النساء ، يقال امرأة بغي ، ونساء بغايا ، والمراد بالآية نهي السادة عن اكراه الاماء على الزنى .

(إن اردن تحصنا) : التحصن هو التعفف ، وهذا شرط لا مفهوم له ، وانما جاء للتشنيع على السادة الذين كانوا يكرهون فتياتهم على البغاء مع ارادتهن التعفف.

قال الأستاذ المودودي في تفسير سورة النور : « ليس معنى هذا الحكم ان الفتيات — وهن الاماء — أن كن لا يردن التحصن فمـــن المباح أن يكرههن على البغاء ، وانما معنى هذا الحكم ان الامة ان كانت ترتكب الفجور برضاها ورغبتها، فالتبعة عليها وحدها ، ولا يؤاخذ القانون الا اياها ، وأما ان كان سيدها هو الذي يكرهها عليه فالتبعة على السيد ، وهو الذي يؤاخذه القانون ، لانه مـــن الظاهر ان الاكراه لا يكون الا اذا اجبر أحد على فعل لا يحبه » .

(لتبتغوا عرض الحياة الدنيا) : عرض الدنيا متاعها ، وسمي عرضا لانه يعرض ثم يزول ، وهذا التعليل يشير الى حقارة الأسياد في اكراه إمائهن على البغاء مقابل المال ، فان المال الذي يكسبه السيد بإكراهه امته على الفجـــور حرام ، والامة عرض سيدها ، والعرض من اقدس ما تجب المحافظة عليـــه ، فتقديمه مقابل متاع زائل خسة وحقارة .

وليست الآية شرطا لثبوت جناية السيد ، فجنايته ثابتة باكراهه امته على الفجور ولو لم يبتغ عرض الحياة الدنيا .

(ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم) : الاكراه يحصـــل بالتخويف بتلف النفس، أو تلف عضو من الاعضاء. والمغفرة والرحمة مخصصتان بالمكرهات من الإماء لأن الاكراه يسقط التكليف عن الانسان ، فلا تكون مؤاخذة . وأما المكرهون فعليهم لعنة الله وغضبه . ورد عن الحسن البصري انه كان اذا قرأ هذه الآية يقول : لهن والله لهن والله — اي أن المغفرة والرحمة للإمـــاء المكرهات لا للأســـياد .

ولكي يتجلى لنا هذا الحكم يجب أن نتبين الظروف التي نزل فيها :
أن البغاء الذي كان ينتشر في بلاد العرب قبل الاسلام كان على نوعين : البغاء في صورة النكاح ، والبغاء العام ، أما الأول فكانت تحترفه بعض الاماء اللواتي لم يكن لهن من يكفلهن ، أو الحرائر اللواتي لم يكن لهن بيت أو أسرة تضمهن ، فكانت إحداهن تجلس في بيت وتتفق في آن واحد مع عدة رجال على أن ينفقوا عليها ويقوموا بأمرها . ويقضوا منها حاجتهم .. فاذا حملت ووضعت أرسلت اليهم حتى يجتمعوا عندها فتقول لهم : قد عرفتم الذي كان من أمركم ، وقد ولدت وهو ابنك يا فلان . فتسمي من أحبت باسمه ، فيلتحق نسبه به . فلما جاء الاسلام ابطل هذا ولم يقر الا النكاح الذي لا يكون للمرأة فيه الا زوج واحد معلوم .

وأما البغاء العام فكان معظمه بواسطة الاماء . وربما وقع من بعض الحرائر وهو على وجهين :

الأول ــ أن بعض السادة كانوا يفرضون على امائهم مبلغا كبيرا من المال يتقاضونه منهن في كل شهر فكن يكسبن بالفجور ، لأن المال المطلوب منهن أكبر من ان يحصلن عليه بحرفة طاهرة .

والثاني ــ أن بعض العرب كانوا يجلسون الفتيات الشابات من إمائهن في الطرقات ، وينصبون على أبوابهن رايات تكون علما لمن أراد أن يقضي منهن حاجته ، وكانت بيوتهن تسمى (المواخير) وكانوا يستدرون من ورائهن المال ، فاذا أبت احداهن أو تعففت عن ممارسة هذه الرذيلة ضربها سيدها واكرهها على مزاولة الحرفة حتى لا ينقطع عنه ذلك المورد الخبيث .

وهذا عبد الله بن أبيّ رأس المنافقين كان له ست جوار شابات جميلات ، يكرههن على البغاء ، طلبا لكسبهن ورغبة في أولادهن ليكثر منهم خدمه وحشمه، وكانت من امائه أمة تدعى (معاذة) قد اسلمت وارادت التوبة ، ولكن ابن أبيّ تشدد عليها ، فأقبلت الى أبي بكر رضي الله عنه وشكت اليه ذلك ، فذكره للنبي صلى الله عليه وسلم ، فأمره بقبضها ، فصاح عبد الله بن ابي : من يعذرنا من محمد يغلبنا على مملوكتنا . فأنزل الله على رسوله هذه الآية : **(ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن اردن تحصنا)** .. الآية .

وبالنظر والتأمل في هذه الظروف التي نزلت فيها هذه الآية الكريمة نرى أن الآية ــ الى جانب نهيها عن اكراه الاماء على البغاء ــ تقرر ان الاحتراف بالفجور محظور .

ولا يجوز وجوده في بلد اسلامي فقد اعلن النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ بعد نزول هذه الآية فيما رواه أبو داود عن ابن عباس أن:«لا مساعاة في الاسلام» والمساعاة هي الفجور علنا .. وقال ــ عليه الصلاة والسلام ــ فيما رواه أبوداود والترمذي عن مهر البغيّ اي اجرة الزانية:« انه خبيث وشر المكاسب » .. كما نهى عن كسب الأمة الا ما عملت بيدها (رواه أحمد) .

وهكذا حرم النبي جميع ما كان رائجا في الجاهلية من صور الزنا وبيع العرض ، وقد حكى ابن كثير عن الامام الزهري ان قضاء النبي في امر معاذة امة عبد الله بن ابي يفيد أن الامة اذا اكرهها سيدها على الفجور فان حقوق ملكيته تسقط عنها .

يقول الاستاذ « سيد قطب » رحمه الله في تفسيره « ظلال القرآن » وهذا النهي عن اكراه الفتيات على البغاء — وهن يردن العفة — ابتغاء المال الرخيص، كان جزءا من خطة القرآن في تطهير البيئة الاسلامية ، واغلاق السبل القذرة للتصريف الجنسي ، ذلك أن وجود البغاء يغري الكثيرين لسهولته ولو لم يجدوه لانصرفوا الى طلب هذه المتعة في محلها الكريم النظيف .

ولا عبرة بما يقال : من ان « البغاء » صمام أمن يحمي البيوت الشريفة لانه لا سبيل لمواجهة الحاجة الفطرية الا بهذا العلاج القذر عند تعذر الزواج ، أو تهجم الذئاب المسعورة على الاعراض ان لم تجد هذا الكلأ المباح .

إن في التفكير على هذا النحو قلبا للأسباب .

فالميل الجنسي يجب أن يظل نظيفا بريئا ، موجها الى امداد الحياة بالاجيال الجديدة ، وعلى الجماعات أن تصلح نظمها الاقتصادية بحيث يكون كل فرد فيها في مستوى يسمح له بالحياة المعقولة وبالزواج، فان وجدت بعد ذلك حالات شاذة عولجت هذه الحالات علاجا خاصا .. وبذلك لا تحتاج الى البغاء ، والى اقامة مقاذر انسانية ، يمر بها كل من يريد أن يتخفف من أعباء الجنس ، فيلقي فيها بالفضلات ، تحت سمع الجماعة وبصرها !

أن النظم الاقتصادية هي التي يجب أن تعالج بحيث لا تخرج مثل هذا النتن. ولا يكون فسادها حجة على ضرورة وجود المقاذر العامة ، في صور آدمية ذليلة .

وهذا ما يصنعه الاسلام بنظامه المتكامل النظيف العفيف ، الذي يصل الارض بالسماء ، ويرفع البشرية الى الافق المشرق الوضيء المستمد من نور الله : **(ولقد انزلنا إليكم آيات مبينات ومثلا من الذين خلوا من قبلكم وموعظة للمتقين) النور/٣٤ .**

تفصيل المعاني :

(آيات مبينات) اي آيات واضحات لا تدع مجالا للغموض والتاويل .

وهي الآيات التي سيقت في هذه السورة وبينت الحدود والاحكام .

(ومثلا من الذين خلوا من قبلكم) : اي انزلنا في القرآن الكريم مثلا من الذين مضوا قبلكم من الامم التي اعرضت عن هداية الله فكان مصيرها النكال .

(وموعظة للمتقين) : اي انزلنا في القرآن الكريم موعظة للمتقين الذين تستشعر قلوبهم رقابة الله فتخشى وتستقيم .

والآية تنادي أمة القرآن أن تلتزم بأحكامه الواضحة وبمنهجه المستقيم . وأن تعتبر بما قصه الله في كتابه من أحوال الأمم التي عزفت عن هداية ربهـا فشقيت ونزل بها العذاب .

وأن تتعظ وتعتبر بما ساقه الله من عظات وعبر لتنال الخير وتثبت على الحق ، وتكسب الأجر العظيم من رب العالمين ، وتسلك الصراط المستقيم : **(ولو انهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم واشد تثبيتا.واذا لآتيناهم من لدنا اجرا عظيما.ولهديناهم صراطا مستقيما)** . النساء/٦٦ — ٦٨

الله نور السموات والأرض

والآن نستقبل آية كريمة جليلة من سورة النور ، تتحدث عن عظمة الله وجلاله وعن نوره الهادي الوضيء الذي يغمر الكون كله ، ويفيض على قلوب المؤمنين ، ويخالط مشاعرهم ، وينسكب في حناياهم فيملأ نفوسهم هدى وتقوى، وان كل شيء في هذا الكون يسبح في بحر من نور الله ، وان السموات والأرض يغشاهما فيض غامر من هذا النور الالهي ، وبه قوامهما ونظامهما ، وهو الذي يمسك عليهما ناموسهما ، ويحفظهما أن تزولا ، ولقد فاض هذا النور على قلب النبي صلى الله عليه وسلم فأضاء له الطريق ، وأعانه على النهوض بتبعات الرسالة ، وأمده بطاقة قدسية هانت بها الشدائد ، وذابت العقبات ، لقد عاد من الطائف بعد أن لاقى ما لاقى من عنت أهلها وقسوتهم فما وهن لما أصابه في سبيل الله وما ضعف ، ولكن مشى في نور الله ثابت الخطى ، متوهج العزيمة، مستعيذا على الشدائد بوجه ربه قائلا : (أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت بـه الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن ينزل بي غضبك ، أو يحل علي سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بالله) .

تفصيل المعنى :

النور في كلام العرب : الأضواء المدركة بالبصر ، التي بها يتكشف الظلام ويستطيع الرائي بها أن يميز الأشياء ويتعرف أبعادها وألوانها ويستعمل النور مجازا فيما صح من المعاني ولاح للأفهام فسهل ادراكه ومنه يقال : كلام له نور اي واضح لا خفاء فيه ومنه قول الشاعر :

نسب كان عليه من شمس الضحى نورا ومن فلق الصباح عمودا

والناس في مجال الثناء على انسان يعيش الناس في فضله وعلمه يقولون: فلان نور البلد ، وشمس العصر ، وقمر الزمان ومنه قول النابغة الذبياني من قصيدة يمدح بها النعمان :

فإنك شمس والملوك كواكب إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

وقال شاعر آخر :

هلا خصصت من البلاد بمقصد قمر القبائل خالد بن يزيد

وقال غيره :

اذا سار عبد الله من مرو ليلة فقد سار منها نورها وجمالها

والله سبحانه ليس من الأضواء المدركة جل وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا وقد حكى الامام القرطبي في تفسيره : « قال هشام الجواليقي وطائفة من المجسمة: هو نور لا كالأنوار وجسم لا كالأجسام ، وهذا كله محال على الله تعالى عقلا ونقلا على ما يعرف في موضعه من علم الكلام ، ثم ان قولهم متناقض ، فان قولهم: جسم أو نور حكم عليه بحقيقة ذلك ، وقولهم : لا كالأنوار ولا كالأجسام نفي لما اثبتوه من الجسمية والنور ، وذلك متناقض ، والذي أوقعهم في ذلك ظواهر اتبعوها منها هذه الآية وقوله عليه الصلاة والسلام اذا قام من الليل يتهجد : (اللهم لك الحمد انت نور السموات والأرض) وقوله صلوات الله وسلامه عليه وقد سئل : هل رايت ربك فقال : (رايت نورا) الى غير ذلك من الأحاديث » اهـ

ويجوز أن يقال : ان الله تعالى نور ، من جهة المدح والثناء عليه سبحانه لأنه أوجد الأشياء ، وهو نور جميع الأشياء ، فمنه ابتداؤها ، وعنه صدورها ، وبقدرته استقامت أمورها ، وقامت مصنوعاتها ، فالكلام على التقريب للذهن ، كما يقال : الملك نور أهل بلده ، اي بعدله ورعايته قوام أمرها ، وصلاح حالها ، لجريان أموره على سنن السداد والرشد وقد وردت اقوال كثيرة للعلماء في توضيح معنى قوله سبحانه : **(الله نور السموات والأرض)** وكل أدلى برايه وبما فتح الله به عليه .

قال ابن عرفة وغيره : اي منور السموات والأرض .
كما يقولون : فلان غياثنا ، اي مغيثنا ، وفلان زادي اي مزودي قال جرير :

وانت لنا نور وغيث وعصمة ونبت لمن يرجو نداك وريق

اي ذو ورق .
وقال مجاهد : مدبر الأمور في السموات والأرض .

وقال الحسن وابي بن كعب وابو العالية : مزين السموات بالشمس والقمر والنجوم ، ومزين الأرض بالأنبياء والعلماء والمؤمنين .

وقال ابن عباس وانس : الله هادي اهل السموات والأرض .
والمعنى متقارب في جميع هذه الأقوال ، وكلها لا تخرج عن معنى أن الله جلت قدرته خالق السموات والأرض ومدبر شئونهما وان كل الكائنات تستمد وجودها وبقاءها واستقامتها من الله سبحانه ، ولو تخلى عنها لحظة لأخذت طريقها الى الفناء .

وفي المقال التالي سنتناول ببيان أوسع معاني النور الالهي والمثل الذي ضربه الله لنوره والله ولي التوفيق .